المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:06، العدد:01 (2022)، ص534-545

المدن الساحلية الجزائرية في القرن 10هـ/16م عند مارمول كربخال وأبي الحسن التمقروتي - دراسة مقارنة-

Algerian coastal cities in the 10th century AH / 16 AD when Marmol Karbakhal and Abi al-Hassan al-Tamqrouti - Comparative study-

فاتح بلعمري
جامعة المسيلة (الجزائر)
Fateh.belamri@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/10/15
تاريخ القبول:
2022/01/09

الكلمات المفتاحية:
- ✓ المدن الساحلية الجزائرية
- ✓ مارمول
- ✓ التمقروتي
- ✓ القرن16م

الملخص:

تتناول هذه الصفحات المدن الساحلية الجزائرية في القرن 10هـ/16م في عيون كاتب أوروبي وهو بمثابة رحالة عاش فترة زمنية لا بأس بها في منطقة شمال إفريقيا، مقارنة مع ما ذكره سفير مغربي مر بساحل الجزائر وحط الرحال بالعديد من مدنه، متوجها إلى القسطنطينية في مهمة دبلوماسية، ومن خلال هذا ارتأينا أن نقدم هذه المدن التي هي بمثابة ثغور الجزائر وفق ما دونه عنها كلا الكاتبين؛ الأوروبي والعربي، محاولين الوقوف على نقاط التشابه والاختلاف بينهما في هذا الأمر. وعليه فالإشكالية تتمحور حول **التعريف بالكاتبين ومصدريهما، وكيف كانت نظرتهما إلى هذه المدن؟ ما هي العوامل التي أثرت في كتابتهما عن هذه المدن؟ وما هي مصادرهما في ذلك غير المشاهدة والمعاينة؟**

Article info

Received:
15/10/2021
Accepted:
09/01/2022

Key words:
- ✓ Algerian coastal cities
- ✓ Marmoul
- ✓ Tammrouti
- ✓ 16th century

Abstract:

These pages are about Algerian coastal cities in the 10th century AH / 16 AD in the eyes of a European writer, who is like a traveler who lived a good period of time in the North African region, compared to what was mentioned by a Moroccan ambassador who passed through the coast of Algeria and landed in many of its cities, heading to Constantinople on a diplomatic mission Through this, we decided to present these cities, which are the outposts of Algeria, according to what both writers have written about them; European and Arab, trying to identify the points of similarity and difference between them in this matter. Accordingly, the problem revolves around the definition of the two writers and their sources, and how was their view of these cities? What are the factors that influenced their writing about these cities? What are their sources for that other than observation and

مقدمة

كثيرة هي المصادر التي تحدث أصحابها عن مدن الجزائر خلال فترات زمنية متباينة، ولعل فترة القرن 10ه/16م التي حملت في طياتها تغير في الأحداث والوقائع بحكم التواجد العثماني في المنطقة والسيطرة الإسبانية على بعض المدن الساحلية الجزائرية حيث تجعل الباحث والمؤرخ في حيرة من أمره، أي المصادر يصدق أخبارها ومعارفها؛ **الأجنبية أم العربية؟** ويجب ألا ننسى ظروف تلك الفترة وتأثيرها على الكتاب الأجانب والعرب على حد سواء، ولمعرفة الحقيقة التي ينشدها الباحث النزيه وجب عقد مقارنة بين ما تدلي به المصادر مهما كان نوعها عن الشخصيات، عن الأحداث والوقائع، عن المدن والقرى...، وعلى وجه الخصوص إن تعلق الأمر بثغور الجزائر، لقبول ما هو حقيقي وواقعي وإبعاد ما هو افتراء وخيالي، وإنه من المفيد أن نتحدث عن المدن الساحلية الجزائرية في القرن 10ه/16م بمنظار ما كتبه أوروبي عاش مدة من الزمن في منطقة الجزائر وما دونه عربي مر على ساحل الجزائر وحط الرحال بالعديد من مدنه، ومن هذا المنطلق **فمن يكون هذا الأوروبي الذي سجل يراعه مدن ساحل الجزائر؟ ومن يكون العربي الذي ماثله في ذلك؟ ما هي المدن التي تناولاها وكيف كانت نظرتهما إليها؟ ما هي العوامل التي تحكمت في كتابتهما عنها؟ ما هي الأحداث الحقيقية والواقعية التي ذكرت عندهما بخصوص هذه المدن؟ وما هي الوقائع المزيفة التي صبغت كتابتهما عنها؟** خصوصا إذا ما استذكرنا فترة الصراع الإسلامي المسيحي في المنطقة، وغرضنا في ذلك كيفية وقوع الحدث ومكانه.

1.التعريف بالكاتبين

1.1. التعريف بالكاتب الأوروبي مارمول كاربخال

ولد في غرناطة أوائل القرن السادس عشر، شارك مع الإمبراطور **شارلكان**[1] في غزو تونس سنة 1535، وحضر احتلال هذه المدينة وما صاحب ذلك من أعمال عنف وتخريب وتدنيس، بقي بعدها في شمال إفريقيا مدة فاقت العشرين سنة (1535-1559) في مهمة تجسسية، وأسر من طرف السعديين في المغرب الأقصى مدة سبع سنوات وبضعة أشهر، تعلم اللغة العربية والبربرية، صال وجال في الشمال الإفريقي وخبر أحواله وأوضاعه في تلك الفترة (مارمول، 1984، ج2، ص ص4-6).

يعتبر أهم الرهبان المسيسين الذين خدموا المسيحية وأباطرتها، وألف عدة كتب منها نذكر **ثورة الموريسكيين بغرناطة، إلهام الجيش المقدس، صلوات القسيسين** الرومان وكتاب **إفريقيا** (مارمول، 1984، ص6)، هذا الأخير الذي ذكر فيه المدن الساحلية الجزائرية.

2.1.التعريف بكتابه إفريقيا

على الأرجح أن مارمول أكمل كتابه إفريقيا في ثلاثة أجزاء سنة 1571، تتبع في أثره صاحب كتاب وصف إفريقيا حسن الوزان، ومعروف أن كتاب هذا الأخير طبع أول مرة بروما سنة 1550، ثم توالت الطبعات

بعد ذلك وبلغات عديدة، وكما قيل عنه فقد أقحم مارمول في كتابه الخرافات والأباطيل ما لا يقره منطق ولا يقبله واقع، ورغم هذا يبقى كتابه مفيدا للباحثين لما سجله من أحداث ووقائع (مارمول،1984، ص ص 6-7).

وما يجب التصريح به في هذا الشأن قبل أن نغوص في الحديث عن المدن التي تناولها مارمول كاربخال عن ساحل الجزائر في القرن 10هـ/16م أنها ملئت بأفكار تغذي النصارى، حيث النصر غالب في جانبهم والهزيمة لا تكاد تنفك عن المسلمين وكتب مارمول كاربخال وهو متعصب للمسيحية ضد الإسلام (مارمول،1984، ص3)، وهذا الأمر جعلنا نقدم على مقارنة ما ذكره هذا الراهب الأوروبي مع ما سجله السفير المغربي التمقروتي.

فمن يكون هذا الأخير؟ وما هو كتابه الذي ذكر فيه مدن ساحل الجزائر في أواخر القرن السادس عشر؟

3.1.التعريف بالكاتب العربي أبو الحسن علي بن محمد التمقروتي:(ت 1003هـ)

هو علي بن محمد بن علي بن محمد الجزولي الدرعي التمقروتي، علامة، فقيه وأديب له مشاركة في علوم وفنون، وجهه **أحمد المنصور الذهبي**[2] إلى السلطان العثماني بالقسطنطينية مع الفقيه محمد بن علي الفشتالي سنة 998هـ-1000هـ لبعث العلاقات بين البلدين، فألف في هذا الأمر كتابا سماه: "**النفحة المسكية في السفارة التركية**"، توفي سنة 1003هـ، ودفن بمراكش بروضة القاضي عياض (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص ص 3-6).

4.1. التعريف بكتابه النفحة المسكية في السفارة التركية

هي عبارة عن رحلة سفارية، أورد فيها التمقروتي معلومات جد مهمة في جوانب عدة، دونت في مجلد وسط طبع على الحجر بالعاصمة الفرنسية باريس، وقد ذكر فيها التمقروتي ما شاهد وما عاين واستعان بمصادر أخرى أثناء تدوينه لها، ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية من طرف الفرنسي هنري ديكاستري ونشر سنة 1929 وعلق عليه، كما نشر النص العربي للكتاب في نفس السنة (أبي الحسن التمقروتي،1988، ص6).

يبدو لنا أن كتاب التمقروتي عبارة عن تقرير سياسي موجه من الكاتب إلى أحمد المنصور الذهبي، تناول فيه عدة قضايا وأحداث شاهدها وعلق عليها، ومدن حط الرحال بها، وقد وجدنا أن القاسم المشترك بينه وبين مارمول هو حديثهما عن مدن ساحل الجزائر، والتي هي محور هذه الدراسة.

2.مدن ساحل الجزائر في القرن 10هـ/16م التي تحدث عنها الكاتبين

1.2.هنين

أول محطة رسا فيها التمقروتي في ساحل الجزائر هي هنين، والتي قال عنها بأنها كانت خربة لم يبق فيها إلا سورها ومسجدها، وداخل السور توجد أشجار التين (التمقروتي،1988، ص17)، بينما هي عند مارمول مدينة واقعة على الشاطئ في مستوى المرية، وهي عنده من تأسيس الأفارقة القدامى، غير أن المعلومات التي يدلي بها يبدو أنه استقاها من مصدر آخر، لأنه يعترف بخرابها وهذا هو القاسم المشترك الوحيد مع ما ذكره التمقروتي، والجدير بالذكر أن هنين عند مارمول كاربخال كانت بها أسوار متينة ومساجد حسنة والدور عامرة بالصناع والتجار وزادها تجار تلمسان والبندقية حركية، كما صنعت فيها أقمشة جميلة وأنسجة قطنية، والذي دمرها هو

دمالفاري بيسان بأمر من شارل الخامس، يحرث أرضها بربر من جبل مجاور وتوجد بها معادن للفولاذ والحديد، وللإشارة أيضا أن مامول كاربخال يعتمد في تحديد إحداثيات المواقع والمناطق على ما ذكره **بطليموس**[3]، ويتهم أهل هنين بالقرصنة على شواطئ إسبانيا (مارمول، 1984، ص ص296-297).

2.2.وهران

ثاني محطة يذكرها التمقروتي في ساحل الجزائر هي مدينة وهران التي لم ينزل بها، بل جاوزها فقد كان فيها النصارى؛ أي الاسبانيين سنة 1589، ودعا عليهم بالدمار وتمنى رجوعها إلى الإسلام، وقدم عنها لمحة تاريخية مستعينا في ذلك بما ذكره ابن عبد ربه في "**العقد الفريد**"[4] بأنها مدينة حصينة من بناء محمد بن أبي عون وجماعة من الأندلسيين سنة تسعين ومائتين، كما رجع إلى ما سجله البكري في تأليفه كتاب "**المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب**"[5]، عن أهل وهران الذين وصفهم بعظم الأجساد والشدة والأيد، ويبدو في حديثه المبالغة، ووهران عنده تبعد عن تلمسان بمسافة مرحلتين، وتقع في جون داخل البحر لم يشاهد منها التمقروتي إلا الأبراج (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص17)، أما فيما يخص مارمول كاربخال فقد قدم عن وهران معلومات ومعارف في غاية الأهمية، إذ هي عنده قديمة بناها السكان الأصليون، وهذا على خلاف ما ذكر التمقروتي، كانت تسمى في العهد الروماني أونيكا كولونيا ويسميها البعض بتسمية أخرى، ويقدم مارمول كاربخال معلومات جغرافية، سكانية، عمرانية واقتصادية عن مدينة وهران وضواحيها ثم يلقي الضوء على كيفية هجوم "**الكاردينال خيمينيس**"[6] على وهران، ويكتفي بذكر ما سماه الاتفاق بين عامل المرسى الكبير ويهودي ومسلمين كانوا قائمين على تحصيل واجبات أبواب وهران لحساب أمير تلمسان، وهنا نستغرب كيف وضع بعض المسلمين كطرف في الخيانة، وهو في كل هذا نراه يفتخر بنصر المسيحيين ويقلل من عدد موتاهم (ثلاثين من الرجال) ويضخم عدد موتى المسلمين أربعة آلاف (مارمول، 1984، ص331-348)، وفي اعتقادنا أن ما ذكره مارمول كاربخال عن وهران يحتاج إلى دراسة معمقة تحليلية خاصة ونوجه هذا إلى من قلمه سيال في هذا الأمر.

3.2.مستغانم

المحطة الثالثة التي ذكرها التمقروتي عن ساحل الجزائر هي مدينة مستغانم، وينقل ما ذكره ابن عبد ربه عنها بأنها مدينة ذات سور قريبة من البحر المتوسط وقريبة أيضا من واد الشلف الذي يصب في البحر، يوجد بأرضها القطن، وفيها المياه والبساتين (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص18)، ويظهر لنا صدق التمقروتي جليا عندما لم يشاهد المدينة يصرح بذلك ويستعين بمصادر من سبقه في الكتابة عنها، بينما مارمول كاربخال يذكر في هذا الشأن بأن مدينة مستغانم من بناء السكان الأصليين، وهي قديمة جدا، تقع على سفح جبل يطل على البحر المتوسط واستعان بما ذكره بطليموس من ناحية الموقع، وذكر بيوتها الجيدة البناء التي تحوي ينابيع المياه وذاك المسجد الواقع في جنوب المدينة ونهر الشلف الذي يمر بشرقها وقد نصبت حوله عدد من الرحى مع وجود أشجار الكروم والتين، وعن أهل مستغانم قال مارمول كاربخال أن غالبيتهم نساجين، والعرب أخضعوا مستغانم لهم فغادرها أهلها، وتعتبر مستغانم مفتاح البلاد (مارمول، 1984، ص350)، تبين جليا أن مارمول

كاربخال قد اقتبس الكثير عن هذه المدينة من كتاب وصف إفريقيا (الحسن الوزان، 1983،ص32)، وتعليقنا على ذلك أنه في غالب الظن لم يشاهد المدينة.

4.2. تنس

هي المحطة الرابعة التي ذكرها التمقروتي عن مدن ساحل الجزائر سنة 1589 هي تنس، التي قال عنها بأنها حصن بناه الأندلسيون البحريون ومن معهم سنة اثنتين وستين ومائتين، وهم من ولد إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبدا لله بن حسن بن حسين بن علي بن أبي طالب، وهو في ذلك يشير إلى ما أقر به ابن عبد ربه (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص18)، وقد خالفه مارمول كاربخال وقال عنها بأنها مدينة عتيقة من بناء سكان البلد الأصليين، وحدد موقعها على حسب ما ذكر بطليموس والذي سماها ليقونت، وهي في منتصف الطريق بين مدينتي وهران والجزائر (مارمول، 1984، ص354)، وللفائدة فقد ذكرت المدينة في كتب الجغرافيين الإسلاميين ومنهم ابن سعيد المغربي الذي قال عنها بأنها مدينة مشهورة بكثرة القمح ومنها يحمل في المراكب إلى سواحل الأندلس، وهي في زمانه قاعدة مغراوة من زناتة، وكان هذا في القرن 07هـ/13م (ابن سعيد المغربي،1982، ص142).

5.2.شرشال

هي المحطة الخامسة التي ذكرها التمقروتي من ساحل الجزائر، وأضاف لها حرف التاء في أولها (ولعله زائد لغوي حسب اعتقادنا)، وقال عنها بأنها بليدة حصينة (تصغيرا لكلمة بلدة) وهي كثيرة الفواكه، الزرع والعمارة، ويذهب بزرعها وخيراتها إلى مدينة الجزائر (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص18).

والملاحظة الواجب ذكرها في حديث التمقروتي عن مدن الجزائر الساحلية أنه ذكرها بمعلومات ومعارف جد مقتضبة ومختصرة عكس مارمول كاربخال الذي قدم معلومات ومعارف كثيرة، ولا يهمه في ذلك الحقيقة من عدمها، حيث قال عن شرشال بأنها من بناء الرومان، وهي عند بطليموس كانوشر، وهي عند البعض كارشينا كولونيا، وموقعها بين تنس ومدينة الجزائر، ولعله رأى من بقاياها معبد مشيد بالرخام والمرمر، وقال بأنها ازدهرت مرة أخرى على أيدي المدجنين وأهل تاكرت ومسلمي الأندلس المتصفين بالشهامة والحذق، وصارت تنتج الحرير بسبب غرسهم لأشجار التوت، بها دور غمرتها مياه البحر وسكانها أذكياء وهم على وفاق مع بربروس، وقد شاهد مارمول كارخال في شرشال تماثيل حجرية وأعمدة مرمرية عليها كتابات لاتينية (مارمول، 1984، ص ص 356-357).

وما يؤكد قول مارمول هذا؛ بأنها كبيرة وأثرية ما ذكره صاحب كتاب الاستبصار: "**مدينة شرشال وهي مدينة كبيرة فيها آثار كبيرة للأول، وهي غير مسكونة، وفيها بنيان عجيب...**" (إسماعيل العربي، د.ت، ص 321)، وقبل أن نذكر المحطة التي هي بعد شرشال ارتأينا أن نضيف ما دونه الحسن الوزان عنها، حيث قال بأن أصلها مدينة فينيقية كانت تسمى أيول، وكانت محل استقرار يوبا الثاني والذي سماها القيصرية ووسعها وزخرفها، خربها الوندال وأحياها العرب وخصوصا الأندلسيون (الحسن الوزان، 1983، ص34)، وارتأينا أن

نوجه القارئ والباحث إلى كتاب مهم عن شرشال يجمع عدة مصادر، وفي مقدمتها الآثار والمخلفات المادية (N.B-N.BENSEDDIK,S.FERDI, PH.LEVEAU, 1981, Alger, , pp8-16).

6.2.مدينة الجزائر

هي المحطة السادسة، دخلها التمقروتي في اليوم العاشر من شوال، ودعا لها بحراسة المولى عز وجل، واستعان كعادته بما ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد عنها وسماها جزائر بني مزغنه، وهي كثيرة الخصب، مانعة وآهلة (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص19)، ويبدو أنه بقي فيها عشرين يوما أثناء ذهابه إلى القسطنطينية، لذلك وصفها بالمنعة وكثرة السكان وخصوبة أرضها وذكر اسمها مقرونا ببني مزغنه، تلك القبيلة التي كانت تقطن المنطقة، وهذا هو القاسم المشترك بينه وبين مارمول (التسمية)، غير أن مارمول ينفرد بقوله بأنها يوليا قيصرية عند الرومان ثم حرف اسمها وصارت الجزائر، وهي جمع جزيرة، مدينة شهيرة منذ القدم، ويقرن ذلك بالرومان وزادها الأتراك ثراء واغناء، والحقيقة أن مارمول قدم معلومات في غاية الأهمية عن مدينة الجزائر من حيث موقعها، أسوارها، نوعية بنائها، أبوابها وخندقها... (مارمول، 1984، ص ص 262-264)، غير أنه ابتعد عن الحقيقة عندما ذكر بأن "**صالح رايس**"[7] هو من أنشأ الرصيف الذي يربط الجزر باليابسة، والمصادر تذكر بأن خير الدين هو من قام بهذا العمل (خير الدين بربروس،2010، ص136)، وهذا ما دونه الأسير الإسباني هايدو الذي عاش في مدينة الجزائر قبل زيارة التمقروتي لها في كتابة "**تاريخ ملوك الجزائر**" (DIEGO DE HAEDO, 2007,pp4).

في نفس السياق، قدم مارمول تفاصيل دقيقة عن مدينة الجزائر؛ عن قصورها، ثكناتها، حصونها، ساحاتها وأزقتها، مسجدها الشامخ (لعله المسجد الكبير)، بساتينها، أرحائها، شرب أهلها وسهل متيجة...، وهو بهذا فاق التمقروتي في وصفه للمدينة، وفي تقديمه لمعارف ومعلومات جد مهمة، ثم ذكر كيفية استيلاء بربروس على صخرة الجزائر، وهو بذلك ينتقي مصطلحاته، ولا يخفي ميوله وتعصبه، وتكاد معلوماته يشوبها التزييف والتحريف، وللإشارة أيضا أن مارمول تحدث عن سوء خاتمة هجوم شارلكان على مدينة الجزائر وأفرد له خمس صفحات (مارمول، 1984، ص ص364-365)، ولا ننسى بأنه كان جنديا في صفوف جيش شارلكان أيام هجومه على تونس.

7.2.حصن دلس

المحطة السابعة التي رسا فيها التمقروتي هي حصن دلس، وقال عنه بأنه مليح منيع، إلا أنه كان خرابا سنة 1589، ويعترف بأن ما كان فيه عبارة عن عمارة ضعيفة قليلة (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص18)، يبدو حكمه هذا على ما كان في المكان وعلى ما شاهد في آن واحد، في حين دلس عند مارمول هي مدينة من بناء السكان الأصليين، محددا موقعها بما ذكره بطليموس، أسوارها جيدة، دورها رديئة، ساكنتها تمتهن الصيد والصباغة، يحبون الموسيقى والعزف والقيتارة، بها القمح والماشية ويتناول أهلها السمك الذي يلفظه البحر،

وحاكمها معين من قبل حاكم الجزائر (مارمول، 1984، ص372)، وقد كان مارمول في هذا المقام متتبعا لما ذكره الحسن الوزان (الحسن الوزان، 1983، ص42).

8.2.بجاية

المحطة الثامنة هي بجاية، أقام التمقروتي بمرساها يوما كاملا، ونعته بالحصانة وقال بأنه يقع في منعة من الريح، مدخله ضيق في جبال عالية جدا، ثم تحدث عن المدينة ووصفها بالعظمة، قد كانت دار علم ومستقر العلماء والصالحين، وذكر منهم: "**أبو مدين شعيب**"[8]، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمان الأزدي الاشبيلي وأبو الحسن علي الاشبيلي، ولا يفوتنا في هذا المقام أنه ذكر حادثة موت أبو مدين شعيب في الرقاد بتلمسان، لقد خصص التمقروتي لبجاية خمس صفحات (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص ص19-23)، وهذا يدل على مكانة المدينة عنده بتاريخها الزاهر، لكن في حديثه عنها كان مستعينا بابن عبد ربه وأبي البقاء خالد البلوي في كتابه "**تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**"[9] (مارمول، 1984، ص ص 370-380).

يغلب على حديث التمقروتي البلاغة اللغوية والأبيات الشعرية، وهذا ما لم يفعله مع باقي مدن ساحل الجزائر، وهنا التساؤل المطروح: **لم هذا الاهتمام الكبير ببجاية؟** ولعل لسانه يجيب:

يخفق في طرقها فؤاد كخرنق صاده عقاب

وللإشارة أيضا أن التمقروتي قدم وصفا لمدينة بجاية كقصر اللؤلؤة، المرسى، المباني التي تسمى المقدمات بالجص، الوادي الكبير (لعله وادي الصومام)، البساتين والحدائق...، غير أنه يعتني عناية خاصة بذكر علمائها وأخبارهم، ولعل المقام يفرض علينا أن نذكر أبو عبد الله محمد بن جعفر العالم الفقيه الذي خص له التمقروتي كلاما رائعا وأثنى عليه ثناء كبيرا، وعند رحيل التمقروتي عن بجاية كان حزينا جدا لفراقها، واختار أبياتا مناسبة لهذا فقال:

إلى كم جفوني بالدموع قريحة ومني وقلبي بالتفرق خـــافق

ففي كل يوم لي حنين مجـــدد وفي كل أرض لي حبيب مفارق

ومـــن خلقي أني أنوف وأنـــه يـــطول التفاني للذين أفارق

وأقسم ما فارقت في الأرض موضعا ويذكرني إلا والدموع سوابق

(أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص 23)

وإذا ما غيرنا الوجهة إلى مارمول كاربخال، فبجاية عنده عاصمة الإقليم وهي من بناء الرومان، وهي عامرة تحوي أزيد من عشرين ألفا من الدور، وحدد موقعها بما ذكره بطليموس، ووصف حصونها، قصورها، دورها، مساجدها، مدارسها، وأقر بعدم وجود الحنطة بها وساكنتها تجار مع أوروبا، كما اتهم أهلها بالقرصنة على البلدان المسيحية مما جعل فرديناند يرسل بيدرو نافارو للاستيلاء عليها، ويبدو أخباره في هذا الشأن ملفقة،

ونفس الأمر ينطبق على كيفية "**تحرير بجاية**"[10] (مارمول، 1984، ص380) من طرف الأتراك بقيادة صالح رايس سنة 1555 (صالح عباد، 2005، ص ص78-80).

9.2.جيجل

المحطة التاسعة هي جيجل، والتمقروتي صرح بأنه لم ينزل بها بل تعداها، غير أنه دخل مرسى القصب لكنه لم يقدم على وصفه كما فعل مع مراسي أخرى، ونحن في هذا المقام نجهل السبب، لكن على غالب الظن أن هيجان البحر وكثرة العواصف والرياح في تلك الليلة حالت دون رسوه في المدينة، حيث قال:

أقول وموج البحر والهول والدجا تـمور بنا فـيها عـــــيون وآذان

الأهـــل إلـى الدنيا وهـــل لنا سوى البحر قبرا أو سوى الماء أكفان

(أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص23)

بينما مارمول كاربخال يتفوق على التمقروتي في ذكره معارف ومعلومات جد مهمة عن جيجل، إذ أنه حدد بعدها عن بجاية باثنتي عشر فرسخا، وهي من بناء الأفارقة القدماء، كانت تسمى جلجيل، وسميت جيجل وجرجي، موقعها ممتاز، أسوارها قديمة، أهلها طيبون وهم صناع، غير أن مساكنهم رديئة، في أرضها سقي الجداول، بها الشعير والعنب والكتان، والتين والجوز يجففان بها ويحملان للبيع في مناطق أخرى، الوفاق حاصل بين سكانها وبربروس، دون أن يهمل النهرين الموجودين في المنطقة؛ نهر سوس ونهر بومرزوك متتبعا منبعهما ومصبهما والأماكن التي يمران بها (مارمول كاربخال،1984، ص ص380-381) تكاد نفس المعارف والمعلومات التي يدلي بها الحسن الوزان، والذي يسميه قصر جيجل (الحسن الوزان، 1983، ص ص51-52).

10.2.مرسى القل

المحطة العاشرة التي يذكرها التمقروتي هي مرسى القل، حيث أعجب به لأنه في منأى عن الريح، أقام فيه يومين كاملين وصلى الجمعة به، وقال ما نصه: " **كانت توجد في هذا المرسى ديار وسوق وجامع...**" (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص24).

بينما القل عند مارمول كاربخال كانت تابعة لمملكة تونس، وذكر بأنها من بناء الرومان ولم يفصل في ذلك، كما حدد موقعها حسب ما ذكره بطليموس، والذي سماها القل العظمى، وقال بأن القوط هدموها وخربوا أسوارها، والمدينة مركز مهم للتجارة والصناع، وأهل القل عنده طيبون متمدنون ويقرن هذا السلوك بسبب تعاملهم التجاري مع أوروبا، في أرضها الحنطة، مختلف أنواع الفواكه، المواشي، وفيها يباع الشمع والجلود وبضائع أخرى، أرضها جبلية تسكنها قبائل تتميز بالشجاعة والإقدام وتجند في العادة آلاف المقاتلين، ولم يحدثنا عن كيفية استسلامها للأتراك الذين يملكون حامية دائمة بها، ووال القل يعين من طرف حاكم الجزائر وهو في تبعية لقسنطينة (مارمول،1984، ص6، ج3).

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر بأن مارمول كارخال استعمل مصطلحات وكلمات تخدم فكرا معاديا للإسلام والمسلمين، ويحاول إبعاد القارئ عن الحقيقة، إذ وجدناه يمجد الحضور الأوروبي في المنطقة (الرومان والتعامل مع أوروبا...) ويقزم الحضور العربي الإسلامي، وحسبنا ألا نكون مبالغين في هذا، لأنه استنتاج الكثير من الباحثين.

11.2.عنابة

المحطة الأخيرة التي ذكرها التمقروتي هي مدينة عنابة، بلد العناب؛ لأن أكثر شجرها العنب، استعان في وصفها بما ذكره ابن عبد ربه، بأن في جبلها الثلج، وبها الحوت، العسل، اللبن واللحم وأكثر هذا الأخير لحم البقر، ثم ذكر ما قاله أبو البقاء خالد البلوي فيها، بأنها مدينة مكينة وقلعة حصينة، شهيرة الاتساع بائنة الارتفاع... قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة سامية الأرجاء واسعة الفناء موضوعة على بنية حسنة من الاعتدال والاستواء (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص24).

والحقيقة الملاحظة أن اقتباس التمقروتي مرات يطول، وكأنه يطابق ما يقرأ على ما يشاهد، وهو في هذا يحيل القارئ إلى مصدره، وقد مكث في مرسى بونة يومين ونعته بالحصانة، وزار قبر الولي الصالح أبي عبد الله الملك مروان بن علي بن القطان في جامع عنابة، وأثنى عليه بما ذكره القاضي عياض وأبو عمران (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص ص 24-25)، في حين مارمول كاربخال يذكرها باسم هيبون (أيام الرومان)، وهي مدينة القديس أوغسطين، نالت شهرة عند القوط، والعنب موجود فيها بكثرة، وعنابة تسمية عربية، وهناك عنابة القديمة رومانية، وعنابة الجديدة عربية، غير أنها عند المسيحيين تسمى بون، أي الجيدة وهذه التسمية هي الأقرب إلى الصواب حسب رأيه، وفي شأن عنابة فقد قدم مارمول كاربخال وصفا دقيقا لها، وذكر منها: بابا المدينة، الحصن، الدور، مدرسة لتعليم شرع محمد، خزانات المياه، البساتين والأجنة، المرسى، السوق، السهول، صيد المرجان، ثم بين حدود عنابة وسرد الحوادث التاريخية التي مرت بها في تبعيتها للإسبان منذ أيام البار قوميز، وتحولها للأتراك الذين استولوا عليها حسب اعتقاده وقاموا بتعميرها وتحصينها (مارمول، 1984، ص ص 8-9، ج3).

ملاحظة: مدن ساحل الجزائر التي ذكرها مارمول كاربخال وسكت عنها التمقروتي وهي: أرشكول، المرسى الكبير، أرزيو، مزغران، بريشكار، قيصرية، ساسا وتمنفوست.

خاتمة

من حصاد ما سبق، نخلص إلى أن الكاتب الأوروبي –الإسباني– مارمول كاربخال قد تفوق على التمقروتي في ذكره معارف ومعلومات كثيرة عن مدن ساحل الجزائر، ولعل المبرر في ذلك هنا أن الكتاب في حد ذاته خصص لهذا الأمر (إفريقيا)؛ مدنا وسكانا، تاريخا وحضارة، بينما التمقروتي الكاتب العربي –المغربي– ذكر معارف ومعلومات جد مقتضبة، لأنه في اعتقادنا كان مارا بهذه المدن، لأن هدفه كان مدينة القسطنطينية.

لا يخفى على أحد أن مارمول كارخال كان ينقل كثيرا من كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان، واستعان بمصادر أخرى منها حوليات القساوسة وكتب الرهبان، وكان يظهر عصبيته بكل أريحية، بينما التمقروتي استعان بمصادر مثل العقد الفريد وتاج المفرق في تحلية علماء المشرق وبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكان يدعو الله لحراسة ثغور الإسلام وبقائها في حوزته، وعليه فقد أبدى إسلامه وتشبثه به.

ينفرد مارمول كاربخال بذكر حوالي عشرين مدينة ساحلية جزائرية، ويكتفي التمقروتي بذكر إحدى عشر فقط، ولعل هذا راجع إلى ظرف كل واحد منهما، فليس المقيم في مكان ما كالمار به هذا من جهة، ومن جهة أخرى فمارمول كاربخال كان يكتب لعموم الأوروبيين والإسبانيين خصوصا، غير أن التمقروتي كان يكتب لولي نعمته أحمد المنصور الذهبي تقريرا سياسيا.

سجلنا حضور التمقروتي بقوة في مدينة بجاية، ومدينة الجزائر هذه الأخيرة أثناء ذهابه وإيابه، وحتى هنين أيضا، وكان يتتبع أخبار العلماء والصلحاء، وهذا ما لم نجده عند مارمول كاربخال، ولعل لهذا تفسير واحد وهو جهله وعدم معرفته للعلماء أسماؤهم وأفعالهم.

للإضافة فالتمقروتي الكاتب المغربي يقر بأحقية السعديين في خلافة المسلمين، حيث قال: "**والعثمانيون من جملة المماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين، وجعلهم حصنا وسورا للإسلام... وإن كانوا إنما حملوا الإمارة وقلدوا الأمر في الحقيقة نيابة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها وأهلها وهم موالينا وسادتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب الذين شرفت بهم الإمامة والخلافة**" (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص ص94-95).

الهوامش:

1- **شارلكان:** هو كارلوس الخامس، من أهم الشخصيات المسيحية الذين واجهوا الإسلام وتصدوا له بعنجهية كبيرة، وهو ابن فيليب دوهابسبورغ Philippe de Habsbourg وجان دوكاستي Jane de Casty ، ولد في 24 فيفري 1500 بمدينة خون بمقاطعة لافلاندر البلجيكية، أصبح شارلكان ملكا للأراضي المنخفضة وهو لا يتعدى 15 سنة، ولم يكن شارلكان يطمح لحمل تاج الإمبراطورية وحده بل كان ينافسه ملك فرنسا فرنسوا الأول، قاد شارلكان حملة على الجزائر في 20 أكتوبر 1541 باءت بالفشل الذريع...(كمال فيلالي، 2016، ص ص111-119).

2- **أحمد المنصور الذهبي (1578-1603):** شخصية من المغرب الأقصى، تقلد زمام الأمور فيه بعد معركة وادي المخازن في 02أوت 1578، بويع عشية الاثنين الآخر من جمادى الأولى بمشهد الفتح على رأس الثلاثين من ولادته، واتخذ لقب الخليفة المنصور تخليدا لهذا الانتصار العظيم على البرتغال، عرفت الدولة السعدية في عهده تطورا ملحوظا وتقدما مقبولا... (عبد الكريم كريم،2006، ص ص 107-121).

3- **بطليموس كلاوديوسPtolemy (حوالي 100م/170م):** عالم فلك شهير في العصور القديمة، ولد في المنشأة بصعيد مصر، أصله من اليونان، عاش في مدينة الإسكندرية وتعلم بها، ثم مارس عمله في الفلك، وكان عالما في الرياضيات، الجغرافيا والتاريخ، كتب الشعر باللغة اليونانية، ترك عدة مؤلفات من أهمها المجسطي الذي يعد أعظم كتب علم الفلك في العهود القديمة (يحتوي على 13 جزء)، وكتابا في الجغرافيا جمع فيه الكثير من المعلومات الجغرافية التي توصل لها السابقون من العلماء، ولديه الكثير من الأعمال في علم الفلك...، بطليموس، www.wikiwand.com، 2021/09/27.

4- **العقد الفريد:** هو كتاب للفقيه الأديب أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي المتوفى سنة 328، قام بتحقيقه محمد سعيد العربان، وطبع في مطبعة الاستقامة بالقاهرة في مصر.، سنة 1953 في 3 أجزاء (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص18 هامش).

5- **كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب:** مؤلفه هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري، ولد حوالي 405هـ/1014م بمدينة شلطيس غرب الأندلس من أسرة ذات شرف ونفوذ، ثم تحول أبوه إلى قرطبة تحت حماية حاكمها أبي الوليد محمد بن جوهر، وهناك تعلم البكري على شيوخها، واهتم خاصة بمحاضرات المؤرخ ابن حيان، والجغرافي العذري وواظب على تسجيل كل ما انتهى إليه من معلومات جغرافية حول المغرب والأندلس. (ناصر الدين سعيدوني، 1999، ص ص 50-56).

6- **الكردينال خيمينيس Francois de Ceneros Ximenes (1463 -1517):** ولد في قشتالة، عين أمينا لسر المملكة في سنة 1492، ثم كاهنا لطليطلة في سنة 1495، ثم حاكما لها حتى وفاة الملكة إزابيلا في 1504، ثم رئيسا لمحاكم التفتيش بين 1506-1516، احتل وهران في سنة 1509، اشتهر بقسوته في تنصير المسلمين وإبادتهم. وكان المحرض الأساسي لاحتلال مدن المغرب بغية تنصير أهله (بسام العسلي، 1980، ص45) و(محمد دراج،2013، ص105).

7- **صالح رايس:** 1486-1556 ولد بالإسكندرية في مصر، وهو عربي مشهور، نشأ منذ الصغر بين الأتراك، أي منذ دخول الأتراك إلى مصر سنة 1517، وقدم خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، تقلد حكم الجزائر بين سنتي 1552-1556، وتوفي على أسوار وهران التي حاول استردادها من الإسبانيين. (فاتح بلعمري، صالح رايس ،2019، ص 178-180).

8- **أبو مدين شعيب:** هو شعيب بن الحسن الأندلسي، شيخ المشايخ سيدي أبو مدين، سيد العارفين وقدوتهم، الإمام المشهور، عرف به جماعة، توفي سنة 594هـ ودفن في العباد بتلمسان، وهو ولي من أولياء الله الصالحين، تنسب إليه العديد من الكرامات والأفعال الصالحة... (أبي القاسم محمد الحفناوي، 2015، ص ص864-870).

9- **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق:** صاحب هذا الكتاب هو الشيخ خالد بن عيسى البلوي، حققه الأستاذ حسن السائح، وطبع بالمحمدية بالمغرب، وهو بمثابة رحلة حجازية، قام بها صاحبها قبل القرن 10هـ/16م، ويبدو أنها كانت معروفة، لذلك اعتمد عليها التمقروتي كثيرا في رحلته، عثرنا على المخطوطة في المكتبة الوطنية وهي تحمل رقم 1566.

10- **تحرير بجاية:** سار صالح رايس إلى بجاية في جوان1555، حاصر المدينة في شهر سبتمبر وقصف تحصيناتها أولا ثم اقتحمها ثانية، وللإشارة فإن مدة الحصار والقصف فاقت العشرة أيام (صالح عباد،2005، ص ص78-80).

-(MAHFOUD KADDACHE, 1992, pp67-68).

قائمة المراجع:

- البلوي، أبي البقاء، **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، (مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم: 4641566).
- التمقروتي، أبي الحسن، (1988)، **النفحة المسكية في السفارة التركية**، تونس، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، (تقديم وتعليق سليمان الصيد).
-الحفناوي، أبي القاسم، (2015)، **تعريف الخلف برجال السلف**، بوسعادة، الجزائر، دار كردادة للنشر والتوزيع، (تحقيق ودراسة: خير الدين شترة)، ج2، طبعة خاصة.
- الوزان، حسن، (1983)، **وصف إفريقيا**، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، (ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر)، ج2، ط2.
- المغربي، بن سعيد، (1992)، **كتاب الجغرافيا**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، (حققه ووضع مقدمته وعلق عليه: إسماعيل العربي)، ط2.
- العربي، إسماعيل، (د.ت)، **المدن المغربية**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- العسلي، بسام، (1980)، **خير الدين بربروس**، الجزائر، دار النفائس.
- بربروس، خير الدين، (2010)، **مذكرات خير الدين بربروس**، الجزائر، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، (ترجمة: محمد دراج).
- دراج، محمد، (2013)، **الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس(1512-1543)**، الجزائر، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، (تصدير ناصر الدين سعيدوني)، ط2.

- سعيدوني، ناصر الدين، (1999)، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين**، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي.

- عباد، صالح، (2005)، **الجزائر خلال الحكم التركي،1514-1830**، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.

- كاربخال، مارمول، (1984)، **إفريقيا**، الرباط المغرب، مطابع المعارف الجديدة، (ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون)، ج1.

-كريم، عبد الكريم، (2006)، **المغرب في عهد الدولة السعدية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية**، الرباط، المملكة المغربية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، ط3.

- كمال، فيلالي، (2016)، **تاريخ المغرب الحديث من فتح القسطنطينية إلى سقوط قسنطينة (1453-1837) أساطير مؤسسة، هجرات، مؤسسات وثورات**، قسنطينة، الجزائر، دار ألكسندر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2.

- فاتح بلعمري، (2019)، **صالح رايس في الجزائر (1552-1556) عمل ميداني مثمر وآمال لم تكتمل**، ضمن كتاب بحوث ودراسات، المسيلة، الجزائر، نواصري للطباعة والنشر، ص ص178-190.

- BENSEDDIK N.B.N, S.FERDI , PH.LEVEAU, (1981), **CHERCHEL**, Alger, imprimé, l'Entreprise Nationale des Arts Graphiques.

- DIEGO DE HAEDO, Histoire des Rois D'ALGER, (2004), **Alger, Grands- Alger- Livre (traduction de l'espagnol er par Henri Delmas de Grammont**, présentation de Abderrahmane Rebahi.)

- MAHFOUD KADDACHE, (1992), **L'ALGERIE durant la période OTTOMANE**, Alger, O.P.U.

www.wikiwand.com